مجلة المعيار ISSN :1112-4377
مجلد: 26 عدد: 4(رت 65) السنة: 2022

الرّمزية الصّوتيّة وظلالها الإيحائية في الخطاب القرآنيّ

– مقاربة أسلوبية في آيات من سورة البقرة–

sound symbolism and its suggestive shadows in the Qur'anic discourse
- A stylistic approach in verses from Surat Al-Baqarah –

أ. جمال بن دحمان[1]
جامعة 8 ماي 1945– قالمة
bendahmane.djamel@univ-guelma.dz

تاريخ الوصول 2021/10/24 القبول 2022/01/29 النشر على الخط 2022/05/10
Received 24/10/2021 Accepted 29/01/2022 Published online 10/05/2022

ملخص:

محاكاة الصّوت للدلالة ظاهرة تتفاوت في حضورها من لغة إلى أخرى، وهي تمتدّ بجذورها إلى الفلاسفة اليونان حينما ناقشوا قضيّة اللفظ والمعنى، ولاريب في أن للغة العربيّة خصائص تجعلها تتبوّأ مكانا عاليا بين اللغات الطبيعيّة، إذ حافظت على بناها الصوتيّة والصّرفيّة والتركيبيّة والمعجميّة بما لم يتهيّأ لغيرها من اللغات، مما يجعل الرّمزيّة الصوتيّة مبحثا أصيلا فيها .

إذا كان هذا هو شأن العربيّة بين اللغات، فما الظنّ بلغة القرآن؟

انطلاقا مما سلف، تحاول هذه المقاربة الأسلوبيّة الصّوتيّة تبيّنَ الخيط الرفيع بين الصّوت والمعنى في نماذج من الخطاب القرآني في سورة البقرة لتنقُل الأثرَ من حيّز الوجود بالقوّة إلى حيّز الوجود بالفعل.

الكلمات المفتاحية: الصّوت– الدلالة – إيحاء – القرآن.

Abstract:

Imitation of sound to signify is a phenomenon that varies in its presence from one language to another, and it extends its roots to the Greek philosophers when they discussed the issue of pronunciation and meaning, and there is no doubt that the Arabic language has characteristics that make it occupy a high place among natural languages, as it preserved its phonetic, morphological, syntactic and lexical structures in a way that was not otherwise. of languages, which makes sound symbolism an original topic in it.

If this is the case of Arabic among languages, then what do you think about the language of the Qur'an?

Based on the foregoing, this phonetic stylistic approach attempts to show the fine line between sound and meaning in examples of the Qur'anic discourse in Surat Al-Baqarah, in order to transfer the effect from the realm of existence by force to the realm of existence in fact.

Key words : the sound, Significance, suggestive, The Quran .

---

[1]- المؤلف المراسل: **جمال بن دحمان** البريد الالكتروني: **bendahmane.djamel@univ-guelma.dz**

مقدمة:

تُعدّ الظواهر الصّوتيّة التي تكتنف الخطابات الراقية – ولا سيّما الخطاب القرآنيّ – ركيزة هامّة من ركائز الأسلوبيّة، إذ يغدو الصّوت وسيلةً طيّعةً تُستثمر لإذكاء جذوة المعنى في أنفس المتلقّين، فالاختيار الصّوتيّ المتساوق مع المضمون والمتجاوب مع المعاني المرومة يُفضي إلى هزّ المشاعر وخلخلة الأحاسيس، وصدق الله تعالى إذ يقول بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾ الزمر: 23 .

والتحليل الصّوتيّ الأسلوبيّ ينتقل من الاستعمال العاديّ للغة إلى الاستعمال الانزياحيّ، أين يُضْحي الصّوت رمزا يسِمُ الأسلوب، وقبيل الولوج للتطبيق أرى أنه من الضّروريّ تجلية مفهوم الرّمزيّة الصّوتيّة.

1- تعريف الرّمزية الصّوتية:

1-1 لغة:

جاء عن الزّبيديّ : "(الرَّمزُ) بالفتح (ويُضَمُّ ويُحَرَّك: الإشارَةُ) إلى شيءٍ ممّا يُبانُ بلَفْظ بأيّ شيءٍ...وفي البصائر: الرّمزُ: الصّوتُ الخَفِيّ، والغمزُ بالحاجِب، والإشارة بالشّفة، ويُعَبَّرُ عن كلّ إشارةٍ بالرّمز."[1] وورد في اللسان: " الرَّمْزُ: تَصْويتٌ خَفِيٌّ باللِّسان كالْهَمْسِ، ويَكونُ تَحريكُ الشَّفَتَيْنِ بكلامٍ غيرِ مَفهومٍ باللَّفْظِ مِنْ غَيْرِ إبانَةٍ بِصَوْتٍ، إنّما هُوَ إشارةٌ بالشَّفتينِ، وقيلَ: الرَّمْزُ إشارةٌ وإيماءٌ بِالعينينِ والحاجِبينِ والشّفَتَيْنِ والفمِ . والرّمْزُ في اللّغةِ كُلُّ ما أشرتَ إليهِ ممّا يُبانُ بلفظٍ، بِأيّ شيءٍ أشرتَ إليهِ، بيَدٍ أو بِعينٍ، وَرَمَزَ يَرْمُزُ ويَرْمِزُ رَمْزًا "[2].

وذكر الكتاب العزيز مادة(رمز) في موضع واحد هو قوله تعالى بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٤١﴾ ﴾ آل عمران: 41 وقد فُسّرت الآية بأنْ "جعل الله حُبْسة لسانه عن الكلام آيةً على الوقت الذي تحمل فيه زوجته"[3] وقال الفرّاء: "والرمز يكون بالشفتين والحاجبين والعينين . وأكثره في الشفتين . كلّ ذلك رَمْز ."[4]

1-2 اصطلاحا:

الرمزيّة الصّوتيّة "هي الدّلالة الكامنة في بعض أصوات اللغة Phonaesthemes وفي بعض التراكيب الصّوتيّة Synaesthesiaوفي بعض الكلمات المحاكية Onomatopoeia حيث يرتبط فيها اللفظ والمعنى، وتدلّ عمليّات النطق والإصدار (التلفّظ) فيها على دلالة الوحدة اللغويّة صوتا كان أو كلمةً[5] "

---

[1] – تاج العروس، تح: التزي وحجازي والطحاوي والعزباوي، مطبعة حكومة الكويت، 1975 ، 161/15- 162 ، مادة [رمز]

[2] – ابن منظور، تح: عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، د.ط، د.ت، ص 1727 ، مادة [رمز]

[3] – محمّد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التّونسيّة للنشر، تونس، 1984، 243/3 .

[4] – الفرّاء، معاني القرآن، تح: أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار، دار الكتب المصريّة، القاهرة، ط 1 ، 1955 ، 213/1 .

[5] – محمد صالح الضالع، الأسلوبيّة الصوتيّة، دار غريب، القاهرة، 2002 ، ص 22 .

"وهذه الطاقة الصوتيّة/الدلاليّة لا تخالف المبدأ اللسانيّ العامّ أن العلاقة بين الوحدة اللغويّة وأصواتها علاقة اعتباطيّة Arbitrary ، أما في اللغة الشعريّة فكثيرا ما يختفي هذا المبدأ حيث ينصهر الشكل مع المضمون، واللفظ مع المعنى، والصّوت مع الدلالة[1] "

2 – الرّمزيّة الصّوتيّة في الفكر الغربيّ والعربيّ:

الرمزيّة الصّوتيّة أو محاكاة الصّوت للدلالة ظاهرة لا تختصّ بلغة دون أخرى، وإن كانت تتفاوت في حضورها من لغة إلى أخرى، وقد امتدّت جذورها إلى الفكر اليوناني ممثّلا في كتاب كراتيل Cratyle لأفلاطون Platon وبقيت تثير لغطا وجدلا فلسفيّا إلى العصر الحديث فنجد يسبرسن Jespersen يرى أنه من غير المنطق أن نسلّم بأن الكلمات التي نستعملها قد نشأت عن تراكم عرضيّ، وبنفنست Benveniste الذي يرى أن العلاقة بين الدال والمدلول ضروريّة وليست اعتباطيّة، وتوسان Toussaintالذي ذهب إلى أن عدم تحديد العلاقة بين الدال والمدلول لا يعني انعدامها[2]

ومن بين أبرز علماء اللغة في القرن العشرين الروسيّ رومان ياكوبسون Roman Jakobson الذي رأى أن "رمزية الأصوات عبارة عن علاقة موضوعيّة لا تُنكر، وهي علاقة قائمة على ربط ظاهراتيّ بين مختلف الوسائل الحسّية، وخاصة بين الإحساسات البصريّة والسمعيّة"[3] وهو يعتقد أن هذه الظاهرة غير مقيّدة بتكرار الوحدات الصّوتية، بل يمكن أن تنشأ من فونيم واحد يكون بارزا في كلمة رئيسية وفي موقع مميّز فيُكسِبه هذا دلالة[4]

أمّا إذا وجّهنا وجوهنا شطر الفكر العربيّ فإننا سنجد اللغوي ابن جني كان من أكبر المتحمّسين والمنتصرين لفكرة الرمزيّة الصّوتية و يبدو ذلك جليّا في كتابه الخصائص الذي ضمّنه أبوابا تشي بحسّه المرهف وذائقته اللغويّة الفذّة من قبيل "إمساس الألفاظ أشباه المعاني"، و"تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني"، هذه الأبواب التي حشد فيها كثيرا من الأمثلة التي تدلّل على تقبّله لفكرة النشأة الطبيعيّة للغة عن طريق المحاكاة. إذ يقول دون مواربة: " "وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات؛ كدوي الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيب الظبي، ونحو ذلك، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد. وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبّل[5] "

إن الذي ذكره ابن جني في أبواب الخصائص من أمثلة مما له صلة بالرمزيّة الصوتيّة في اللغة العربيّة كثير، هذا لأن للغة العربيّة خصائص في بناها تجعلها تتبوّا مكانا عليّا بين اللغات الطبيعيّة، فقد عمّرت ما ينيف على الستة عشر قرنا محافظة على بنيتها

---

[1] – المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[2] – يُنظر: توفيق العلوي، الرمزية الصوتيّة الحدّ والتجاوز، حوليات الجامعة التونسيّة،كلية الآداب، جامعة منوبة، العدد: 49 ، 2005، ص ص 209 – 217

[3] – رومان ياكوبسون، قضايا الشّعرية، تر: محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ص 54 .

[4] – يُنظر: المرجع نفسه، ص 55 .

[5] – ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الكتب المصريّة، المكتبة العلميّة، ط2 ، د.ت 1/ 46– 47.

الصوتيّة والصرفيّة والتركيبيّة والمعجميّة، وهذا ما لم تحزه غيرها من اللّغات التي طوّحت بها يد الزمن فغيّرت بناها حتّى نكِرها أهلها، وهذا يدرأ ما قد يُوجّه إليها من مزاعمِ التطوّر والتغيّر التي تُضعِف مبحث الرمزيّة الصوتيّة فيها[1]

يقول الرافعيّ مُكْبرا أساليب العرب وسننها في التأليف "ومن يتتبع تراكيب هذه اللغة ويتدبر أثر الأسباب اللسانية فيها، لا يجد كلاما يعدل كلام العرب في العذوبة والبيان، وفي الاختصار ونهج التأليف بين حروف الكلمة الواحدة، حتى إنهم قد يراعون موضع الحروف من معانيها ، فيجعلون الحرف الأضعف فيها والألين والأخفى والأسهل والأهمس لما هو أدنى وأقل وأخفى عملا وصوتا، ويجعلون الحرف الأقوى والأشد والأظهر والأجهر لما هو أقوى عملا وأعظم حسّا[2] "

إذا كان هذا هو شأن اللغة العربيّة بين اللغات، فما ظنّك بشأن لغة القرآن؟ لا ريب أنّ لغة القرآن هي اللغة المنتقاة من اللغة المنتقاة، أو هي زبدة اللغة العربيّة في أصواتها وألفاظها ونظمها وأساليبها، ولا شك في أن القرآن الكريم استثمر كلّ خصائص العربيّة ليأتي على أحسن وجه وأكمل هيأة في التعبير، ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ الزمر: 23 ومن ذلك ما نلمسه في كثير من ألفاظه وتراكيبه التي تشفّ عن معانيها بأصواتها المؤلِّفة لها وبالسّمات المميّزة لهاته الأصوات من مخارج وصفات، فيستعمل اللفظ والتركيب ليحاكي المعنى ويساير السياق قوّة وضعفا، وسهولة وصعوبة وثورةً وهدوءا وخفّة وثقلا.

وقد أفاض كثير من الدارسين العرب في مسألة الرمزيّة الصّوتيّة في لغة القرآن وصورها وشروط اشتغالها، فرأوا أن انتشارها في السّياق اللغويّ محكوم بالتراكم والكثافة، وهذا التراكم ينقسم إلى قسمين؛ إما عن طريق أحاديّ بتكرار فونيم واحد يلقي بظلاله على السّياق، وإما عن طريق التعدّد ويتأتى ذلك بتكرار مجموعة صوتيّة يربط بينها رابط مشترك إما باتحاد مخارجها أو باتحاد صفاتها وأجراسها أو تقاربها فتلوّن السّياق وتُمدّه بدلالة إيحائيّة مؤازرة للدلالة اللغويّة، والقيم التعبيريّة للأصوات منها ما يتعلّق باللفظ المفرد حين يحاكي الحدث بأصواته، ومنها ما يكون على صعيد التركيب وتتوزع الدلالة الصوتيّة إذ ذاك على مساحته الصّوتية ككل[3] .

إن النظم القرآنيّ يستثمر كل إمكانات اللغة الصّوتيّة من أجل التأثير في المتلقي ووضعه في صورة الحدث الذي يحسّه بسمعه وكأنه يعاينه ببصره، "والأديب البارع من يوظف القيمة الصّوتيّة في رسم المعاني، ويشخّصها للمتلقي، لأن الإيقاع يجب أن يمثل الحالة الشعوريّة، ولن يبلغ الشعر شأو القرآن"[4] ولله سبحانه المثل الأعلى.

وفي ما يلي من أوراق، يحاول الباحث أن يتلمّس هذه السّمة الأسلوبيّة الصّوتيّة في سورة البقرة، وهو أمر يحتاج إلى طول تأمّل وتدبّر وتذوّق للأصوات مع ملاحظة الانزياح في الاستعمال سائلا المولى عزّ وجلّ الرّشد والسّداد.

---

[1] – يُنظر: توفيق العلويّ، الرمزية الصوتية الحد والتجاوز، مرجع سابق، ص240، وكذا محاضرة لمحمد داوود بعنوان: الإعجاز البياني في القرآن الكريم على هذا الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=k9r-Tkd6ldw

[2] – تاريخ آداب العرب، راجعه وضبطه: عبد الله المنشاوي ومهدي البحقيري، مكتبة الإيمان، المنصورة، مصر، د.ط، د.ت،91/1 .

[3] – يُنظر: عبد العزيز أيت بها ولالة مريم بلغيثة، التراكمات الصوتية ودلالاتها في التراكيب القرآنية، مجلة الباحث، مخبر اللغة العربية، جامعة الأغواط، الجزائر، العدد 10 ، أوت 2012 ، ص 99 .

[4] – أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنيّة، دار المكتبي، دمشق، سوريا، ط2 ، 1999 ، ص31 .

1) الإيحاء بالانغلاق:

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ البقرة: 7

جرت هذه الآية مجرى التعليل للحكم السابق ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ البقرة: 6 لدفع العجب في استواء إنذارهم بعدمه، فإذا عَلم السامع أن على قلوبهم ختماً وعلى أسماعهم وأن على أبصارهم غشاوة عَلِمَ سبب ذلك كله وبطل عجبه ، فالجملة استئناف بياني يفيد جواب سائل يسأل عن سبب كونهم لا يؤمنون(...)والختم حقيقته السد على الإناء والغلقُ على الكتاب بطين ونحوه، فإذا فُتح علم صاحبه أنه فُتح لفسادٍ يظهر في أثر النقش، والغِشاوة فِعالة من غشاه وتغشاه إذا حجبه[1].

قال مجاهد في قوله تعالى ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾: نُبّئت أن الذنوب على القلب تحفّ به من كل نواحيه حتى تلتقي عليه ، فالتقاؤها عليه الطبع ، والطبع الختم...وقال الأعمش : أرانا مجاهد بيده فقال : كانوا يرون أن القلب في مثل هذه- يعني : الكف – فإذا أذنب العبد ذنبًا ضُمَّ منه ، وقال بأصبعه الخنصر هكذا ، فإذا أذنب ضُمّ . وقال بأصبع أخرى ، فإذا أذنب ضُمّ. وقال بأصبع أخرى وهكذا ، حتى ضم أصابعه كلها ، ثم قال: يُطبع عليه بطابع[2]

إن معنى الضّم الذي رواه مجاهد والأعمش نجده مجسّدا في هذه الآية من خلال تكثيف صورته في أذهان المتلقين بضمّ الشفتين في عشرين موضعا كالآتي:

- عن طريق صامت الميم في سبعة (7) مواضع.
- عن طريق صامت الباء في ثلاثة (3) مواضع.
- عن طريق صامت الواو في أربعة (4) مواضع.
- عن طريق صائت الضم في ستة (6) مواضع.

"إنها صورة صلدة ، مظلمة ، جامدة ، ترتسم من خلال الحركة الثابتة الجازمة . حركة الختم على القلوب والأسماع ، والتغشية على العيون والأبصار"[3] .

2) الإيحاء بالانغلاق والجمود:

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ البقرة: 18 ، وقال جلّ شأنه في موضع آخر من السورة نفسها ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ البقرة: 171 .

---

[1] – يُنظر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، 254/1 .

[2] – يُنظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تح: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، الرّياض، ط2، 1999، 174/1.

[3] – سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، ط 32، 2003، ص 42 .

إن الناظر المتأمّل في التشكيل المقطعيّ والفونيميّ لهاتين الآيتين وبين المعنى يجد تشاكلا وتناسبا لطيفين، فكأن الدلالة متجسّدة محسوسة ماثلة للعيان، فمن حيث المقاطع تتكوّن عبارة ﴿ صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ ﴾ من ستة (6) مقاطع مقفلة من النوع المتوسّط (ص ح ص) المنتهي بصامت يمنع جريان النفس في المخرج.

ص ـــُ مْ /م ـــُ مْ /ب ـــُ كْ /م ـــُ نْ /ع ـــُ مْ /ي ـــُ نْ /

ص ح ص/ ص ح ص/ ص ح ص/ص ح ص/ ص ح ص/ ص ح ص/

وهذا يوافق انطماس حواسّ هؤلاء المنافقين وانغلاقها، "فالصُّمُّ والبُكمُ والعُميُ جمع أصمّ وأعمى وأبكم، وهم من اتصف بالصّمم والبَكَم والعَمى ، فالصَّمم **انعدام** إحساس السّمع عمن من شأنه أن يكون سميعاً ، والبَكَم **انعدام** النّطق عمن من شأنه النطقُ ، والعمى **انعدام** البصر عمن من شأنه الإبصارُ "[1] وورد هذا المعنى – أيضا – في قول البقاعيّ: "ولما فرغ من المثَل كشف المراد بظلماتهم بأنها ما في آذانهم من **الثقل** المانع من الانتفاع بالسّماع ، وما في ألسنتهم من الخرس عن كلام الخير الناشيء عن **عدم الإدراك** الناشيء عن عمى البصائر وفساد الضمائر والسّرائر ، وما على أبصارهم من **الغشاوة** من الاعتبار وعلى بصائرهم من **الأغطية** المنافية للادّكار"[2]

ووافق السّكون في نهاية المقاطع كذلك **جمود** هؤلاء في مكانهم لا يبرحونه متحيرين لا يدرون أيتقدّمون أم يتأخرون[3] ﴿ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿١٤٣﴾ ﴾ النساء: 143 .

ومما رسّخ الظلال الإيحائيّة للمقاطع تكرار الميم –التي تَنتُج عن انغلاق الشفتين– خمس (5) مرات فناسبت انغلاق الآذان والأفواه والأعين عن الحق، إضافة إلى صائت الضمّ الذي تواتر ذكره ستّ (6) مرات، كما أن التناسب الإيقاعيّ بين الكلمات الثلاث (صمّ بُكم عُمي) والتساوي بين مقاطعها فيه إشارة بليغة إلى تساويهم في الصّمم والخرس والعمى التي تؤدي مجتمعةً إلى فقدانهم بالتّساوي ، لأهم الحواسّ التي بها تتم عمليّة الإدراك والوعي[4]

3) الإيحاء بجوّ الفزع والرّهبة:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾ ﴾ البقرة: 19 – 20.

يصف سيد قطب هذا المشهد بقوله: "إنه مشهد عجيب ، حافل بالحركة ، مشوب بالاضطراب . فيه تيه وضلال ، وفيه هول ورعب ، وفيه فزع وحيرة ، وفيه أضواء وأصداء . . صيّب من السماء هاطل غزير (فيه ظلمات ورعد وبرق) . . (كلما

---

[1] – محمد الطّاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، 314/1 .

[2] – البقاعي، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ط، د.ت، 120/1.

[3] – يُنظر: الزمخشريّ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 3، 1407 هـ، 78/1.

[4] – ينظر: ماجد النجار، من ملامح الدلالة الصوتيّة في القرآن الكريم، مجلة أهل البيت، العدد: 4 ، ديسمبر 2006، ص246.

أضاء لهم مشوا فيه) . . (وإذا أظلم عليهم قاموا) . . أي وقفوا حائرين لا يدرون أين يذهبون . وهم مفزّعون : (يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصّواعق حذر الموت) "[1]

والآيتان تتحدّثان عن القرآن الكريم وشدة وطأته على أسماع المنافقين وقلوبهم، "وكان المنافقون إذا حضروا مجلس النبي صلى الله عليه وسلم ، جعلوا أصابعهم في آذانهم فَرَقا من كلام النبي صلى الله عليه وسلم أن ينزل فيهم شيء أو يُذكروا بشيء فيُقتلوا"[2]

ومما أسهم في الشّعور بقوّة وشدّة وطأة هذا المشهد صوتيّا أصوات الإطباق والاستعلاء البارزة في حنايا الآيتين:

كَصَيِّبٍ ...ظُلُمَٰتٌ ...وَبَرۡقٌ ...أَصَٰبِعَهُمۡ ...ٱلصَّوَٰعِقِ ...مُحِيطُۢ ...ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ ...أَضَآءَ ...أَظۡلَمَ ...قَامُواْ ...وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ ...قَدِيرٌ

التي استُعملت بصورة ملفتة فآزرت الدلالة اللغويّة بوجه عامّ.

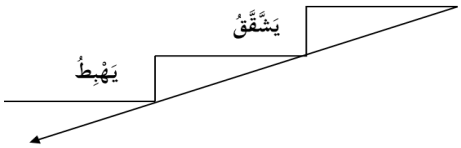

(شكل 1)

4) الإيحاء بالقوّة والضّعف واتّجاه الحركة:

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٧٤ ﴾ البقرة: 74

نزلت هذه الآية في شأن بني إسرائيل الذين لم تؤثّر في قلوبهم الصّلدة المعجزات الباهرة التي تزلزل المشاعر وتهزّ القلوب وتبعث في النفوس الإيمان لأنه قد طرأ عليهم بعد رؤيتها ما أزال آثارها من قلوبهم ، ومحا الاعتبار بها من عقولهم[3] "

ويُلحظ في هذه الآية تدرّج من الأقوى فعلًا إلى الأضعف، فالتّفجّر أقوى من التشقّق، والتشقق أقوى من الهبوط، وقلوب بني إسرائيل لم تبلغ حتى أدنى ما يصدر من هذه الحجارة الصّماء. الشكل (1)

وقد جاءت الأصوات المشكّلة للكلمات الثلاث محاكية لتراتبيّتها من الأقوى أثرا إلى الأضعف أثرا مساوِقةً لمعانيها مسايرة لدلالاتها، كالآتي:

يَتَفَجَّرُ: تتألّف من التاء والفاء المهموستين ثم من الجيم المجهورة المركبة المضعّفة التي تبدأ شديدة انفجاريّة وتنتهي رخوة تتلوها الراء المجهورة المتصفة بالتكرار إضافة إلى صيغة (تفعّل) مضعّفةِ العين الدالة على المبالغة، فحاكت هذه اللفظة بأصواتها فعل تفجّر الأنهار، إذ يتولّد عن ضغط شديد ثم اندفاع هائل للمياه ثم يزول الضغط شيئا فشيئا وتتكرّر عمليّة التدفّق.

---

[1] – سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ص 46.

[2] – الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تح: أحمد محمد شاكر، مؤسّسة الرسالة، ط1، 2000، 346/1.

[3] – يُنظر: محمد سيّد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر، القاهرة، ط1 ، 1997 ، 173/1 .

يَشَّقَّقُ: تتألف من الشين الرخوة المهموسة المتفشية المضعّفة تتبعها ثلاث قافات (قاف مضعّفة وقاف خفيفة)، والقاف هي أنسب الأصوات المحاكية لصوت تشقّق الحجارة، لذا نجد ابن سينا في أسباب حدوث الحروف حين تكلم عن أن الحروف قد تُسمع من حركات غير نطقيّة قال: "و[أنت تسمع] القاف عن شقّ الأجسام وقلعها دُفعةً"[1]

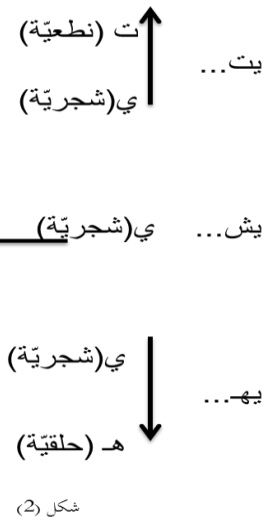

شكل (2)

يَهْبِطُ: تبتدئ بالهاء المهموسة الرخوة وتنتهي بالباء والطاء المجهورتين الانفجاريتين وهي تصور حركة الحجر الهاوي من عليائه متدحرجا إلى أن يرتطم بالأرض فيحدث صوتا شديدا.

وهناك ملمح صوتيّ آخر لطيف يتمثل في بدايات هاته الألفاظ (**يت**...) (**يش**..) (**يه**..)وموقعها في المدرج الصوتيّ ومحاكاتها لحركة الأفعال المعبِّرة عنها .

فتفجُّر الأنهار فيه حركة رأسيّة من أسفل إلى أعلى، وكذلك مخرج الياء أدنى من مخرج التاء، فالياء شجريّة والتاء نطعيّة

وتشقق الحجارة فيه حركة أفقيّة لا هي إلى الأعلى ولا إلى الأسفل، وكذلك الياء والشين من مخرج واحد فكلاهما شجريّ

وهبوط الحجارة فيه حركة رأسيّة من أعلى إلى أسفل، وكذلك مخرج الهاء أدنى من مخرج الياء، فالياء شجريّة، والهاء حلقيّة (الشكل 2)

5) الإيحاء بالمنع والصّدّ:

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمَنْ **أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ** مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ البقرة: 114 .

انظر إلى هذه الميمات كيف جاءت متتابعة متّصلة لا يفصل بينها فاصل صامتيّ، آخذ بعضها برقاب بعض، ولا يضاهي هذا الموضع في عدد الميمات المتّصلة إلا موضع واحد في القرآن كله من سورة هود عليه السلام[1]، إنها ست (6) ميمات ألقت

[1] – تح: محمد حسان الطيان ويحي مير علم، مطبوعات مجمع اللغة العربيّة بدمشق، ص 93.

بظلالها على مشهد المنع والسّد والحيلولة، وقد تعددت أسباب نزول هذه الآية، فقيل نزلت في مشركي العرب كما في رواية عطاء عن ابن عباس، وهي تشير إلى منع أهل مكة النبيء صلى الله عليه وسلم والمسلمين من الدخول لمكة، وقيل نزلت في بختنصر ملك أشور وغزوه بيت المقدس ثلاث غزوات أولاها في سنة 606 قبل المسيح، وما انجر عنها من نهب وحرق للمسجد الأقصى، وقيل : نزلت في غزو طيطس الروماني لأورشليم سنة 79 قبل المسيح فخرب بيت المقدس وأحرق التوراة وترك بيت المقدس خراباً إلى أن بناه المسلمون بعد فتح البلاد الشامية

والوجه هو التعويل على الرواية الأولى وهي المأثورة عن ابن عباس، فبيّن أن ظلم المشركين لم يبلغه أحد ممن قبلهم إذ **منعوا** مساجد الله **وسدّوا** طريق الهدى **وحالوا** بين الناس وبين زيارة المسجد الحرام.[2]

فجاء هذا التراكم الميميّ المتولّد عن الإدغام ليرسّخ في شعور المتلقي صورة المنع والصّد :

...ءَ ـَ ظْ ل ـَ م ـُ م ـِ مْ م ـَ مْ م ـَ ن ـَ ع ـَ...

"فانطباق الشفة على الشفة مع حرف الميم يماثل الأحداث الطبيعية التي يتم فيها السّدّ والانغلاق"[3]

6) الإيحاء بجوّ التأمّل والتدبّر:

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

﴾ البقرة: 164 .

هذه آيات كونيّة يسوقها الله سبحانه وتعالى تترا شاهدة على بديع صنعه وعظيم قدرته، فبعد أن أخبر بأنّه هو المستحق للعبادة، أورد ثمانية أدلّة تشهد له بالقدرة والوحدانيّة، وتهدي أصحاب العقول السّويّة إلى إفراده بالعبوديّة[4]

ولما كان المقام مقام تذكير ودعوة للتأمّل وإعمال العقل للخلوص إلى وحدانيّته سبحانه، جاء الخطاب هادئ النبرة، رخيّ العبارة، يتهادى إلى الأسماع في رقّةٍ وعذوبة بيانٍ، ومما أفاض على الخطاب هذه الأوصاف من ناحية تركيبه الصّوتيّ غلبةُ صفتي الهمس والرخاوة على صفتي الجهر والشدّة فيه، و"في مواضع غير الشدة يستعمل القرآن الكريم الأصوات الليّنة والمهموسة، ولا سيما في تصويره معالم الطبيعة والكون"[5]

---

[1] – في قوله تعالى: ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ هود: 48

[2] – ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، 1/ 678 – 679 .

[3] – حسن عباس، خصائص الحروف العربية ومعانيها، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1998 ، ص72 .

[4] – يُنظر: محمد سيّد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مرجع سابق، 329/1 .

[5] – تحسين فاضل عباس، جمال الجرس القرآني، مجلة اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الكوفة ،العدد: 17 ، جويلية 2013 ، ص433.

والمقاطع المفتوحة التي تخلّلت الآية كثيرة إذا ما قورنت بالمقفلة، فقد بلغ عدد المقاطع القصيرة المفتوحة (ص ح) اثنين وأربعين مقطعا، وبلغ عدد المقاطع المتوسّطة المفتوحة (ص ح ح) اثنين وعشرين مقطعا، أما المقاطع المقفلة فبلغت أربعة وأربعين مقطعا، وهذا يتوافق مع كثير من الدراسات التي ربطت بين المقاطع المفتوحة ومواقف التذكير[1] .

وهناك تشكيل مقطعيّ لفت انتباهي، وأراه بتأليفه حاكى فعل المتأمّل، وهو (**ص ح ص/ص ح/ص ح ح**) الذي تكرّر إحدى عشرة مرّة كالآتي:

/ء ـِ ن/ن ـَ/فـي/.../ق ـِ س/س ـَ /ما/.../و ـَ خ/ت ـِ/لا/.../و ـَ ن/ن ـَ /ها/.../ك ـِ ل/ل ـَ /تي.../ن ـَ س/س ـَ/ما/.../م ـَ و/ت ـِ/ها/.../ب ـَ ث/ث ـَ/في/... ف ـِ ر/ر ـِ/يا/.../و ـَ س/س ـَ/حا/.../ن ـَ س/س ـَ/ما/

ذلك أنه قبل إعمال العقل يكون الإنسان في غفلة وعمًى عن الآيات، وهذا يناسبه المقطع المقفل (ص ح ص)، ثمّ يتدرّج المتأمّل في التفكير والتّدبّر فتنجلي أمامه الحقائق شيئا فشيئا، وهذا يناسبه الانتقال من المقطع القصير المفتوح إلى المقطع المتوسّط المفتوح.

7) الإيحاء بالثّقل والكراهة:

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ ﴾ البقرة 216 .

كثرة تردّد الضّم في هذا التركيب وبخاصّة إذا عُلم أن نسبته هي أدنى نسبة في صوائت اللغة[2] يتناسب مع موضوع الآية وهو فرْضية القتال على المؤمنين لردّ اعتداءات الكافرين مع ما في ذلك من مشقة وعنت.

"والكُره بضم الكاف الكراهية ونفرة الطّبع من الشيء... وقيل : الكُره اسم للشيء المكروه كالخُبز . فالقتال كريه للنفوس ، لأنه يحُول بين المقاتل وبين طمأنينته ولذَّاته ونومه وطعامه وأهله وبيته ، ويُلجئ الإنسان إلى عداوة من كان صاحبه ويعرّضه لخطر الهلاك أو ألم الجراح ، ولكن فيه دفع المذلَّة الحاصلة من غلبة الرجال واستضعافهم ، وفي الحديث (لا تَمَنَّوْا لِقَاء العدوّ فإذا لقيتم فاصبروا) وهو إشارة إلى أن القتال من الضّرورات التي لا يحبّها الناس إلا إذا كان تركها يفضي إلى ضرّ عظيم"[3] .

فاستُعمل في ذكر ما تنفر منه النفوس وتأباه وتستثقله الصّائت المستثقَل الضمّ، إذ يُروى أنّ رجلا قال للخليل: لا أجد بين الحركات فرقا، فقال له الخليل ما أقلّ من يميّز أفعاله، أخبرني بأخفّ الأفعال إليك، فقال: لا أدري، قال: أخفّ الأفعال عليك السمع، لأنّك لا تحتاج فيه إلى استعمال جارحة، إنما تسمعه من الصّوت، وأنت تتكلّف في إخراج الضمة إلى تحريك الشفتين مع إخراج الصّوت، وفي الفتحة إلى تحريك وسط الفم مع إخراج الصّوت ، فما عمل فيه عضوان أثقل مما عمل فيه عضو واحد[4]. فكان

---

[1] – يُنظر: عبد العزيز أيت بها ولالة مريم بلغيثة، التراكمات الصّوتية ودلالاتها في التراكيب القرآنية، مرجع سابق، ص113

[2] – يُنظر: إبراهيم أنيس، الأصوات اللغويّة، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها بمصر، د.ط، د.ت، ص57

[3] – محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، 320/2 .

[4] – يُنظر: السّيوطي، الأشباه والنظائر في النحو، تح: غريد الشيخ، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط 2، 170/1 .

الضّمُّ قمينا بهذا الموطن دون غيره من الصّوائت، وهناك ناحية أخرى تجدر الإشارة إليها، تظهر فيها المشاكلة بين إنتاج صائت الضمّ و كراهية القتال وإحجام النفس عنه، وهي أن اللسان يرجع إلى مؤخّر الفم عند النطق به ولذلك وُصف بأنه صائتٌ خلفيّ.

8) الإيحاء بالعَظَمة:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ ﴾ البقرة: 238 .

إنه إيقاع هادئ خاشع مهيب أسهم في إذكاء الشعور به الصّوائت الطّويلة الموزعة على المساحة الكلّيّة للآية توزيعا بديعا متناسقا في عشرة مواضع .

(حا..ظو....وا...لا...طى..قومو..لا..قا..تي)

فألقت بجمالها وجلالها على مشهد الصّلاة المؤدّاة في تؤدة، تامّةِ الركوعِ والسجود، وهذا يوافق معنى القنوت المأمور به، يقول الطنطاوي: "والقنوت لزوم الطاعة مع الخضوع والخشوع"[1] وجاء في تفسير السعدي: "وقوموا لله قانتين. أي : ذليلين خاشعين ، ففيه الأمر بالقيام والقنوت والنهي عن الكلام ، والأمر بالخشوع ، هذا مع الأمن والطمأنينة "[2].

والمحافظة على الصلاة في أوقاتها المخصوصة تؤذن بأن المتعلّق بها حق عظيم[3] ، وإفراد الصلاة الوسطى من باب التفخيم لشأنها، والإعلاء لقدرها من بين الصلوات الأخرى[4] ، وقد أسهم في تصوير هذا المعنى أصوات الإطباق والاستعلاء المفخّمة التي لم تكد تخلو منها كلمة من كلمات الآية.

(ظ...ص...ص...ط..ق...ق...)

فسرى معنى التعظيم في جميع أوصالها، فالجانب البلاغيّ والجانب الصوتيّ يتظافران في علاقة وثيقة في سبيل إبراز المعنى، وهكذا تتشكّل الصورة الفنيّة للجملة القرآنيّة بتقاطع الصورتين؛ البيانيّة والصّوتيّة الإيقاعيّة.[5]

9) الإيحاء بصوت وقع المطر الشديد:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾ البقرة: 264 .

هذا مثل ضربه الله تعالى لنفقة المنافق والمرائي، والمؤمنِ الذي يمنّ بصدقته ويؤذي ، ويرى الناسُ في الظّاهر أن لهؤلاء أعمالاً ، كما يرى التراب على هذا الصفوان ، فإذا كان يوم القيامة بطل كله واضمحل ، لأنه لم يكن لله كما أذهب الوابل ما على الصفوان من التراب فتركه صلداً، والوابل هو المطر الشديد العظيم القطر[1].

---

[1] – محمد سيّد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مرجع سابق، 548/1.

[2] – السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تح: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط 1، 2000، ص 106.

[3] – ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، 466/2 .

[4] – ينظر: محمد سيّد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مرجع سابق، 546/1.

[5] – ينظر: ماجد النجار،من ملامح الدلالة الصوتيّة في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص245 .

ولتصوير هذا المشهد استعمل القرآن الكريم أصواتا حاكت بوقعها على الآذان وقع حبّات المطر الكبيرة على الصّخر المغطّى بالتراب، وكأنها حجارة تقع من علٍ فتصطكّ بهذا الصفوان فتحدث صوتا انفجاريّا، ويتضح ذلك في رصف هذه الكلمات الثلاثة

تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ جنبا إلى جنب، وفي تركيب كلٍّ منها صائت الفتح الطويل الذي يعقبه صامت الباء الانفجارية. ويمكن تمثيل ذلك كالآتي (شكل 3):

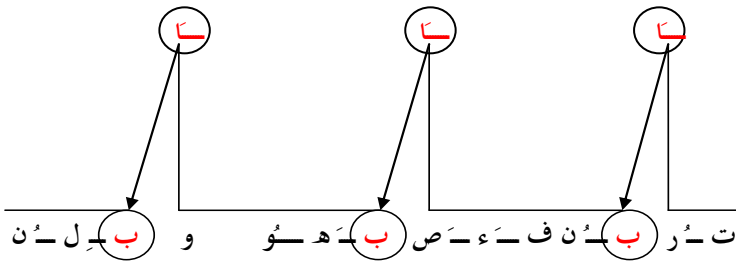

شكل (3)

10) الإيحاء بجوّ الخشوع والضّراعة:

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ البقرة: 286 .

إنه تذلل وخشوع وانكسار أمام عظمته سبحانه "وهو دعاء يصوّر حال المؤمنين مع ربهم ؛ وإدراكهم لضعفهم وعجزهم ، وحاجتهم إلى رحمته وعفوه ، وإلى مدده وعونه ؛ وإلصاق ظهورهم إلى ركنه ، والتجائهم إلى كنفه ، وانتسابهم إليه وتجردهم من كل من عداه ؛ واستعدادهم للجهاد في سبيله واستمدادهم النصر منه . . كل أولئك في نغمة وادعة واجفة تصوّر بإيقاعاتها وجيب القلب ورفرفة الروح "[2]. ومما أكسب الآية بطئا إيقاعيّا يتناسب وموقف الدعاء والتبتل والضّراعة استعمال المقاطع الممدودة:

نا...لا...آ...نا...سي...نا...نا...نا...ما...هو...ذي...نا...نا...لا...نا...ما...لا...طا...نا...هي...نا...نا...لا...نا...نا...كا...ري

وحروف المدّ إذا شاعت شيوعا واضحا أكسبت المقطع نوعا من البطء والتّراخي، كما أن قلّتها تُشعِر بالسرعة[3]

ومن الدارسين الذين علّقوا على شيوع صائت الفتحة الطويلة في الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة ماجد النجار، إذ يقول: "ويكفي أن نلقي نظرة خاطفة على هاتين الآيتين لندرك مدى انتشار هذا الحرف المتطاول إلى الأعلى ، وكأن الكلمات هي الأخرى كما الذين آمنوا، ترفع أيديها نحو السماء متضرّعة إلى بارئها متوسّلة إليه بأنغام مديدة"[4]

---

[1] – يُنظر: البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تح: محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة، الرياض، ط 4، 1997، 326/1.

[2] – سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ص345.

[3] – يُنظر: عبد الواحد زيارة اسكندر، النّقد الصّوتي بين النظريّة والتطبيق، مجلة أبحاث البصرة (الإنسانيات) ، المجلد 30 ، العدد: 2 أ، 2006 ، ص121.

[4] – ماجد النجار، الدلالة الصّوتيّة في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص 411

كما أن فونيم النون الذي تردّد أربع عشرة مرّة – وأغلبه ناشئ عن الضمير المتصل (نا) الواقع مضافا أو فاعلا أو مفعولا أو اسما مجرورا – أرخى بسدول من الحزن والتطريب على مشهد الدعاء نجمت عن صفة الغنّة.

خاتمة:

بعد هذا التّطواف في رحاب آيات مختارة من سورة البقرة من زاوية نظر أسلوبيّة صوتيّة يمكن الخروج بمجموعة نتائج، نورد أهمها كالآتي:

1. الرمزيّة الصوتية هي ظاهرة موجودة في لغات شتى ولكنّها أقرب التصاقا باللّغة الطبيعيّة التي حافظت على خصائصها كاللغة العربيّة، وللغة العربيّة خصائص تنماز بها عن غيرها من اللغات التي تطوّرت وانبتّت عن منبتها حتى نكرها أهلها، وتساءلوا: هل هم أمام لغات جديدة؟ وأهمّ مصدر حافظ على اللغة العربيّة فبقيت غضّة طرية رغم توالي القرون هو القرآن الكريم الذي تخيّر من جذور اللّغة أعذبها جرسا، وأدقّها تعبيرا، وأنسَبها سياقا.

2. الرمزيّة الصوتيّة تقنيّة أسلوبيّة تمتّع بها الخطاب القرآنيّ، وقبل نزول القرآن تمتّعت بها اللغة العربيّة، وهذا مبثوث في كتب أهل اللغة، وأرى أن أفضل من تكلّم عنها ابن جني في الخصائص، بيد أنه ذكرها في الألفاظ مفردةً، أما الرّمزيّة الصوتيّة في القرآن فتتأتى من طريقة النظم، وتخيّر الألفاظ ورصفها بحسب المقام.

3. الوسائل الموظّفة في الخطاب القرآنيّ من خلال النماذج المدروسة في سورة البقرة تتمثّل في:
   - الرمزيّة الصّائتيّة وظلالها الموحية بالثقل والتراخي والهدوء والخشوع... بحسب السّياق.
   - الرمزيّة الصّامتيّة: عن طريق المخارج والصّفات ومناسبتها للمقام.
   - الرمزيّة المقطعيّة: عن طريق تنويع المقاطع كمّا وكيفا (الطول والقصر، والانغلاق والانفتاح) لملاءمة المشاهد المعبَّر عنها.

4. الفونيمات التركيبية والمقاطع الصوتيّة قد توحي بأحاسيس مختلفة تبعا للإطار الذي تنتظم فيه، وكيفيّات التشكيل، وكل ذلك يتمّ بالتّكثيف والتّراكم الانزياحيّ الذي يُكتشف بالإحصاء، فالإحصاء هو الآليّة الأسلوبيّة التي تنقل الذوقيّ الانطباعيّ إلى الموضوعيّ العلميّ، وتخرج الجمال الأسلوبيّ من دائرة الوجود بالقوّة إلى دائرة الوجود بالفعل.

ولا يزال الخطاب القرآنيّ منفتحا على قراءات أسلوبيّة متجدّدة تكتشف مواطن الجمال والتأثير فيه، فهو الكتاب الذي أشبع نهم العقل والعاطفة في آن واحد.

قائمة المراجع:

الكتب:

1. القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.
2. إبراهيم أنيس، الأصوات اللغويّة، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها بمصر، د.ط، د.ت.
3. أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنيّة، دار المكتبي، دمشق، سوريا، ط2 ، 1999 .
4. البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تح: محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة، الرياض، ط 4، 1997.
5. البقاعي، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ط، د.ت.
6. ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الكتب المصريّة، المكتبة العلميّة، ط2 ، د.ت .
7. حسن عباس، خصائص الحروف العربية ومعانيها، منشورات اتحاد الكتاب العرب، د.ط، 1998 .
8. رومان ياكوبسون، قضايا الشّعرية، تر: محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، د.ط، د.ت.
9. الزبيدي، تاج العروس، تح: التززي وحجازي والطحاوي والعزباوي، مطبعة حكومة الكويت، د.ط، 1975.
10. الزمخشريّ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 3، 1407 هـ.
11. السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تح: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط 1، 2000.
12. سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، ط 32، 2003.
13. ابن سينا، أسباب حدوث الحروف، تح: محمد حسان الطيان ويحي مير علم، مطبوعات مجمع اللغة العربيّة بدمشق، د.ط، د.ت.
14. السّيوطي، الأشباه والنظائر في النحو، تح: غريد الشيخ، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط 2، د.ت.
15. الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تح: أحمد محمد شاكر، مؤسّسة الرسالة، ط1، 2000.
16. الفرّاء، معاني القرآن، تح: أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار، دار الكتب المصريّة، القاهرة، ط 1 ، 1955 .
17. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تح: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، الرّياض، ط2، 1999.
18. محمّد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التّونسيّة للنشر، تونس، د.ط، 1984.
19. محمد سيّد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر، القاهرة، ط1 ، 1997 .
20. محمد صالح الضالع، الأسلوبيّة الصوتيّة، دار غريب، القاهرة، د.ط، 2002 .
21. مصطفى صادق الرافعيّ، تاريخ آداب العرب، راجعه وضبطه: عبد الله المنشاوي ومهدي البحقيري، مكتبة الإيمان، المنصورة، مصر، د.ط، د.ت.
22. ابن منظور، لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، د.ط، د.ت.

المقالات:

1. تحسين فاضل عباس، جمال الجرس القرآني، مجلة اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الكوفة ،العدد: 17 ، جويلية 2013.
2. توفيق العلوي، الرمزية الصوتيّة الحدّ والتجاوز، حوليات الجامعة التونسيّة، كلية الآداب، جامعة منوبة، العدد: 49،2005
3. عبد العزيز أيت بها ولالة مريم بلغيثة، التراكمات الصوتية ودلالاتها في التراكيب القرآنية، مجلة الباحث، مخبر اللغة العربية، جامعة الأغواط، الجزائر، العدد 10 ، أوت 2012 .
4. عبد الواحد زيارة اسكندر، النّقد الصّوتي بين النظريّة والتطبيق، مجلة أبحاث البصرة (الإنسانيات) ، المجلد 30 ، العدد: 2 أ، 2006 .
5. ماجد النجار، من ملامح الدلالة الصوتيّة في القرآن الكريم، مجلة أهل البيت، العدد: 4 ، ديسمبر 2006.

المواقع الإلكترونية:

- محمد داوود، الإعجاز البياني في القرآن الكريم، محاضرة على الرابط:https://www.youtube.com/watch?v=k9r-Tkd6ldw